كتاب
تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

ومن شعر ناصر الدين بن الحسين قولهُ وامر بان تعلق على باب الحمام الذي انشأهُ تنكز في بيروت:

وحمّام يروقُ العين حسنًا تحيطُ بهِ المسرّةُ والنعيمُ
يُريك الماء يسرحُ فوق درٍّ تزول بهِ لنظرهِ الهمومُ
كانَّ حُبابَهُ والجامُ فيهِ سماءٌ طالعاتٌ بها نجومُ
وقد رُفعت لمن شاء المعالي واضحى على المالوك لها زعيمُ
بهِ أمِنَ الشآمُ وساكنوهُ وطيئةُ والشاعرُ والحطيمُ
بهِ الاسلام اصبح في انتصار وجمع الشركِ مغلولٌ هزيمُ
فانَّ الناصرَ المنصورَ سيفٌ وفي قلبِ العدوّ بهِ كلومُ
وانَّ الناصر المنصور رمحٌ بهِ يتوطّد الدينُ القويمُ
وانَّ الناصر المنصور درعٌ بهِ يتنفّضُ الامرُ الجسيمُ
فاهل الشام والاسلام جمعًا دُعاهمُ انَّ دولتهُ تدومُ (؟)
وان يُعطى خلودًا في سعودٍ مدى الايام ما هبَّ النسيمُ

وقال يخاطب بعض اهل زمانهِ:

ما لي اراكَ عزيزي اليومَ تظلمني والعدلُ منكَ الرجا والفضلُ والأملُ
لو آمرٌ رام اذلالي سواكَ نبتْ عمّا يحاول مني البيضُ والأسلُ
وانّما انت ما لي عنكَ من عوضٍ تجني فأرضى وتبلوني فاحتملُ
فاحفظ مودّةَ عبدٍ حافظٍ ابدًا عهد الأخلاّ ان جاروا وان عدلوا
واغرس جميلًا اذا ما كنتَ مقتدرًا فالوقتُ يذهبُ واللذّاتُ والدُّوَلُ

وقال ايضًا وصدّر بهِ كتابًا عن جواب:

وافى المثال وحيّانا فأحيانا لمّا ارانا من الاخوان إحسانا

كأنهُ بارقٌ باتت لوامعهُ تهدي الى اعين الانسان انسانا (٤٥)
انوارهُ اشرقت في الكون فانبعثت اشعّة حملت رَوحًا ورَيحانا
فالله يحرس من ضاءت محاسنهُ حتّى استفدنا بها علمًا وعرفانا
لولاهُ ما خبرت اقلامُنا حكما يومًا ولا نظمت في السلك عقيانا

وقال ايضا:

ما احسن العدل والانصاف بالامرا اذا تولوا امور النـاس بالرُّتب
وما يدوم سوى الفعل الحميد وما توليهِ من حُسنٍ تبقيهِ في الكُتبِ
اني صدقتكَ في قولٍ فأحملهُ على النصيحة لا هزلٍ ولا لعبِ (٤٦)

وقال يعاتب صديقًا:

واذا السعادة غيّرت اخوانـنـا ولَوَوا وجوههمُ بها وتبـدلوا
فلاصبرنَّ عـلى التغيّر منهمُ أسني العتابَ لهم الى ان يعدلوا

وللناس مدائح كثيرة في ناصر الدين المذكور ولو ذكرتُ بها لضاق بها واقًا نذكر منها اليسير ونختصر الكثير (١ حتّى لا يطول الشرح بها ولا يخلو هذا الكتاب منها. وقد تقدّم ذكرنا لمحمد بن عليّ بن محمـد النَّزّي شاعر السلف ووصفنا حسن كتابتهِ وبلاغتهِ. ولهُ المدائح الجليلة في السلف. ومن ذلك المقامة المقدّم ذكرها سنروي منها ان شاء الله ما جاء فيها من وصف كلّ واحد منهم عنـد ذكرنا لهُ. ثمّ ختم النَّزّي المذكور هذه المقامة بمديح ناصر الدين وولدهِ بقصيدة اختصرت منها هذه الابيات صدّرها بما يأتي من النثر (٢:

« وهل تُشامُ في الشام غيرُ بروق سحابيهِ. او يروقُ غير جمال كُتبهِ وجميـل كتابيهِ. فالجدُّ والجدوى وقفٌ على سيفهِ وقلمهِ. والعفافُ والتقوى من طباعهِ وشيَمهِ. غالبًا بآرائهِ الغنيّة عن الروايات. بالغًا بآلائهِ غايات النهـاية ونهاية الغايات. مع كتابة كالروض باكرَهُ من كفّهِ وَسمي الغمام. وبلاغة تفعـل بالعقول ما لا تفعلهُ المُدام.

---

١) وكذا فعلنا نحن ايضًا لانَّ في اكثر هذه القصـائد ركاكة ظاهرة وجوازات شعريّة عديدة تشوّه ما فيها من المحاسن

٢) جاء في حاشية الكتاب: « كل ما نكتبهُ عن النَّزي نقلناه عن خطّه »

اولها:

حيا الحيا غربَ يبروتٍ ومَن فيهِ ... وجودَ كفِّ ابن سعد الدين تكفيهِ
غربٌ غدا مشرقَ المجود ما برحت ... شمسُ المكارم تضحي في ضواحيه (٥٩)

ومنها قولهُ:

فللحسافل ما تحوي حشاشتهُ ... وللمحافل ما تحوي اياديهِ
وللتقى منهُ ما ضمّت بواطنهُ ... وللحيا منهُ ما ضمّت مآقيهِ
وللفضائل والأفضال منطقهُ ... وللمحاسن والإحسان ناديهِ
هل للحسين بن خضر في الورى احدٌ ... جودًا يباهيهِ او بأسًا يضاهيهِ
ان قلتُ ليثٌ فما لليثِ همتهُ ... اذا سطا يوم حربٍ في اعاديهِ
او قلتُ غيثٌ فما للغيث موقعهُ ... في النقع ما بين قاصيهِ ودانيهِ
او قلتُ بحرٌ فاين البحرُ من رجل ... لو أُعطيَ البحرَ اعطاهُ بما فيهِ
من زيّن الدينَ والدنيا بطلعتهِ ... فالله يُبقي اباهُ ثمّ يبقيهِ
قد خصّهُ الله من اعمامهِ كرمًا ... بمعشرٍ من صروف الدهر تفديهِ

ولمحمد النزّي مخمّس من مشطور الرجز يمدحهُ بهِ ومنهُ قولهُ (٦٠):

يا من يجوبُ قاصيَ البلادِ ... ان جئتَ إعبيهِ فقف ونادِ
سقى رُباكِ وابلُ العهادِ ... فيكِ اهل الجودِ والجيادِ
سُحبُ العطايا وأُسودُ الحربِ
واقرِ السلامَ من غريب الدارِ ... على ابن سعد الدين ذي الفخارِ
ناصرِ دين الله بالبتّارِ ... ومُطعم الضيف وحامي الجارِ
والوابلِ الهامي زمانَ الجدبِ
خيرُ اميرٍ آمرٍ بالكرمِ ... عوّد كفّيهِ بسطَ النِّعمِ
ما قبضا غيرَ عنانَ الشيظمِ ... او اسمرٍ او ابيضٍ او قلمِ
ينهلُ في الطِّرس شبيهَ السُّحبِ
ثناؤهُ مثل العبير فائحُ ... تزهو بهِ وبانيهِ المدائحُ
نعم الحسينُ والاميرُ الصالحُ ... للدين زينٌ حاوسٌ مكافحُ
يحمي حمى الدين بحدّ العَضبِ

فهْ شبلٌ قد نشا من أسدٍ كمثله في بأسه والجلدِ
بطلعةٍ مثل ضياء الفرقدِ جنابهم للمعتفي والمعتدي
جودًا وبأسًا في ندًى وكَرَبِ
ما زال للدين حسينٌ ينصرُ كخضر سعد الدين بل ذا اكثرُ
وجدُّهُ محمدٌ لا يُنكَرُ كرامةٌ حجى ابوهم يُجترُ
خير تنوخٍ من اجل العُرب
اخوتُهُ اربعةٌ كرامُ هم لِسلكِ مجدهِ نظامُ
مكارمٌ يشكرها الانامُ من دونها البحارُ والغمامُ
ان قيل مَن قلّ امراء الغربِ
عزٌّ صلاحٌ ثمّ فتحٌ وشرفْ لهم على الغَربِ جمالٌ وطُرَفْ
بحار جودٍ من نداها تغترفْ مَن أمّهم عنهُ الاسى قد انصرفْ
ولم يُحقّ من مُعضلاتِ الحلَبِ
قومٌ لهم اشرقتِ الجبالِ اقوالهم تتبعها الفعالُ
اربعةٌ ما لهمُ مثالُ شمسٌ صباحٌ قمرٌ هلالُ
قرّةُ عينٍ وسرورُ القلبِ
يا آلَ عبدالله من جُمَيرِ سلالةُ النعمان إبن المنذرِ
لا عجبٌ ان كان ماء المطرِ جدُّكمُ وانتمُ كالأبحرِ
عذبٌ شهيٌّ من زُلالٍ عَذبِ
اوليتموني من نداكم أنعُما وعشتُ في ظلكمُ مكرّما
انّ لكم مني ثناء ضعف ما سمعتمُ مني وما تقدّما
ما غرّدت سواجعٌ في القُضُبِ

(ستأتي البقيّة)